تعترض الإنسان مجموعة من التهديدات التي ترجع للمحيط الذي يعيش فيه، فحياته بذلك ليست في منأى عن الوضعيات الصادمة الفردية أو الجماعية و التي يستجيب لها بمجموعة من التظاهرات العيادية التي تأخذ في بعض الحالات شكل تناذر عيادي.

منذ أن رأى مصطلح الصدمة النفسية النور، فرض على الباحثين و المختصين الممارسين سلسلة من السببيات و الحتميات التي من بينها مقاربة الصدمة من باب قابلية الجرح و عوامل الخطر التي تخص كل الأحداث و الوضعيات المؤدية للسلوكات المرضية، حيث اعتقد أن الترعرع في وسط عائلي متدني أو أحادي (موت الأب أو موت الأم) أو محيط مشحون بالصراعات و الاضطرابات النفسية من شأنه أن يهيئ الأفراد للسيكوباتية و الانحراف الأخلاقي (إساءة المعاملة، الجنوح، الإدمان...)

و تعود هذه الحتمية إلى ما أسماه Cyrulnik " انحراف الممارسة" حيث أن الممارسين لا يستقبلون في عياداتهم إلا الفئة التي تعاني من صعوبات، و بتحليل ماضي هذه الفئة توصلوا إلى أن أغلبية هؤلاء الأشخاص كانوا عرضة لسوء المعاملة في طفولتهم، و لكن لو لجأوا للدراسات التنبؤية و لو درسوا مآل مثل هؤلاء الأطفال المتعرضين لسوء المعاملة، لكانت نتائجهم مختلفة تماما، فالأشخاص الذين تغلبوا على المآسي و الذين لم يكرروا سوء المعاملة عبر الأجيال هم أشخاص "مختفون"، "مقصيون" بقوا بعيدين عن العيادات و المصحات النفسية.

فالواقع يفصح عن وجود أشخاص خارقين، أبهروا المختصين بانتصارهم على التجارب القاسية و بتمكنهم من بناء حياة إيجابية ناجحة و منسجمة.

و لقد أطلق على هذا الانتصار لفظ الجلَد، فما معنى كلمة جَلَد؟

يبدو من الصعب و ضع تعريف جامع للجلَد، إذ يحتوي التراث العلمي المتخصص على تعاريف مختلفة لهذا المفهوم، فأصل كلمة الجلَد الكلمة الفرنسية Résilienceو هي كلمة لاتينية الأصل من résilientiaتستعمل عادة في علم فيزياء المواد لتعني مقاومة المادة للصدمات القوية و قدرة بنية ما على امتصاص الطاقة الحركية للوسط دون أن تتحطم (Anaut, 2007, p.34)، إذن في علم المعادن يعني الجلَد خاصية المواد التي تتمتع باللدانة و الهشاشة في ذات الوقت و التي تظهر قدرة على استعادة حالتها البدائية بعد صدمة أو ضغط متواصل.

وحسب القاموس التاريخي للغة الفرنسية (in Anaut, 2007, p . 35) كلمة résilierتتكون في الأصل من reو يعني حركة نحو الوراء و salireو تعني القفز أو الوثب، إذن résilienceتعني الوثب إلى الخلف و من هنا كانت الترجمة الحرفية للغة العربية الرجوعية حسب سهيل إدريس 2007 أو الاسترداد حسب المركز الإسرائيلي لعلاج الصدمات النفسية أو الجلَد كما ورد في الندوة التي نظمت في القدس حول الجَلَد في مارس 2007 ، إلا أننا نفضل كلمة الجلَد أي الصبر على المكروه و تحمل الألم لما في ذلك من دينامية و خاصية إنسانية.

فالجلد هو القدرة على النجاح، العيش و التطور إيجابيا على نحو مقبول اجتماعيا، بالرغم من الضغوط أو المحن التي تحمل في طياتها خطرا حقيقيا لمخرج سلبي.

و يعود الفضل ل Emmy Wernerفي إدخال كلمة الجلد حيز التوظيف السيكولوجي في أواخر الثمانينات بعد دراستها الطولية بجزر هاواي على 200 طفل فقير منحدرين من أسر متدنية المستوى، آباء ذهانيين أو مدمنين...وضعت لهم مآلا أسودا و تنبأت لهم بالضياع و الانحراف، و لكن بعد مرور 30 سنة فوجئت بعكس ما توقعت، فهؤلاء الأطفال حققوا نجاحا اجتماعيا مذهلا بالرغم من أنهم لم يحظوا برعاية نفسية خاصة.

فكونت هذه الدراسة قاعدة صلبة للعديد من الأبحاث الأنجلوساكسونية التي تتسم بكونها دراسات وصفية، كمية تعتبر الجلد سمة شخصية و من هؤلاء الباحثين نذكر Rutterسنة Garmezy et al(1980)سنة (1984) Masten et O'Connor سنة(1989) Luthar سنة (1991) و من الدراسات الحديثة نسبيا نذكر دراسة Louise Nadeau, Marc Corbière, Magali H. Dufourسنة 2001 حول استراتيجيات تكيف ضحيات التحرش الجنسي الجلدات و المدمنات حيث طبقوا استبيان WCQل Lazarusعلى 20 امرأة تعرضت للتحرش الجنسي جلدات و 20 امرأة أخرى تعرضت للتحرش الجنسي مدمنات قيد العلاج، فتوصلوا إلى أن الجلدات و المدمنات يستعملن استراتيجية البحث عن السند الاجتماعي و إعادة التقييم الإيجابية/البحث عن حلول لمواجهة التحرش، بينما تلجأ كذلك المدمنات دون الجلدات لاستراتيجيات التجنب و الابتعاد.

هذا بالإضافة للدراسات ذات التوجه السلوكي المعرفي (Jourdan Ionescu 2001 ; 2004) و النسقي البيئي (Vinay, 2004) التي تسلط الضوء على دور الدفاع الحامي، المرونة، الإنعاش، المعنى، التقييم، إيجابية الذات...

في العشرية الماضية جلب مفهوم الجلد اهتمام الأخصائيين الفرانكفونيين إذ يعود الفضل للطبيب العقلي CyrulnikBorisفي إدخال مصطلح الجَلَد لسجل المفردات المتخصصة Le jargonالفرنسي من خلال كتابهكتابه Un merveilleux malheurسنة 1999 حيث استغل Borisدقة ملاحظة المختص الاتولوجي، أدوات الطبيب العقلي، تعاطف المحلل النفسي و مهارات الروائي ليصف كيف أن أفرد مجروحين انتصروا على الضربات القاسية التي تلقوها و نجحوا في تخطي ذاك المعاش إذ وجدوا معنى لحياتهم و وضعوا في الوجود ما يجلب لهم السعادة وذلك بتوفر عوامل داخلية وخارجية تتيح لهم الفرصة لنسج سيرورة الجلد.

عكف الفرانكفونيون على دراسة سيرورة الجلد و العوامل الحمائية الداخلية منها و الخارجية التي تدخل في بنائه و بهذا دخل مصطلح الجلَد علم النفس الإكلينيكي من بابه الواسع و تضاعفت الدراسات الكيفية التحليلية في هذا الحقل الخصب فسلطت الضوء على وزن الآليات الدفاعية و الإرصان العقلي في مواجهة الصدمات بالاعتماد على منهجية دراسة الحالة المقارن و على الاختبارات الإسقاطية و من بين هذه الدراسات نذكر دراسة Lighezzolo, Marchal et Theisسنة 2003 على أطفال من نفس العمر، مروا بنفس التجارب كسوء المعاملة، و دراسة Theis سنة 2006 لنيل شهادة الدكتوراه و المتمثلة في مقاربة سيكوديناميةللجلد عند أطفال في سن الكمون تعرضوا لسوء المعاملة الأسرية و وضعوا بأمر قضائي في أسر مستقبلة، لجأت Theisفي دراستها إلى المقارنة بين 12 ولد و بنت 6 منهم جلدين و 6 غير جلدين بالاعتماد على اختبارات إسقاطية و هي اختبار القصص، اختبار الرسم و اختبار الرورشاخ، فتوصلت إلى أن للدور التكيفي لآليات الدفاع بالدرجة الأولى دورا محوريا في بناء الجلد حيث تحققت هذه الفرضية عند 5 من الأطفال الجلدين و عند كل الأطفال غير الجلدين، بينما تكتسي العقلنة و الفضاء الخيالي أهمية أقل في بناء الجلد، في حين بدا لها أن وجود موجه للجلد عند الأطفال الجلدين لا يعتبر ضروريا لبناء الجلد.

ما يعاب على هذه الدراسة هو عدم تجانس المجموعتين اللتان شكلتهما، كان من المفروض ضبط بعض المتغيرات، كسن الأطفال عند الوضع الأول إذ تباين بين 15 شهر إلى 6 سنوات، لم يحظوا في نفس الوقت بالمتابعة التربوية، و نفس التكفل، تواصل العنف عند بعضهم لمدة طويلة و هذا ما من شأنه أن يؤثر على نموهم النفسي.

هناك دراسة أخرى قام بها Claude de Tychey, Mariana Popa, Rosine Diwo, Amandine Theisسنة 2007 تداركوا فيها الملاحظات السابقة الذكر في دراسة Amandine Theis ,حيث كانت عينة الدراسة مكونة من توأم غير حقيقي (Dizygotes) و هما فتاتين رومانيتين تعرضتا لعدة صدمات متراكمة، الفرضيات الفارقية تعلقت بالآليات الدفاعية ضد قلق الانفصال، القدرة على المعالجة العقلية للإثارات النزوية العدوانية و إمكانية إعادة بناء تقمصات جديدة مع موجهات الجلد كلها تحققت.فتوصلوا إلى أن العوامل المتدخلة في الجلد هي عوامل نفسية بحتة و أقصوا الجانب الجيني الوراثي، و لكن الملاحظة التي نوجهها لهذه الدراسة كون التوأم غير حقيقي قد يختلف متاعه الوراثي بينما لو كان التوأم حقيقي لما اختلف في الأمر، فما هو دور العوامل الجينية في الجلد؟

أظهرت الدراسات الحديثة في علم الوراثة الجزيئي دور بعض البدائل الوراثية عند ربطها بعوامل خطر بيئية، و في ميدان الجلد هناك دراسة واحدة من هذا النوع و هي دراسة Caspi et alسنة 2003 التي تفرض أنه عند الأطفال المتعرضين لسوء المعاملة الحاملين لبديل وراثي مرتبط بمستوى عال للأمين الأحادي أكسيداز "أ" و هو إنزيم لأيض النواقل العصبية، يكون احتمال إصابتهم بسلوكات سيكوباتية أقل بكثير من أولئك الذين لا يحملون هذا الأخير.